طوبى لصانعي السلام

الأب أيّوب شهوان

أستاذ مادّة الكتاب المقدّس

جامعة الروح القدس – الكسليك

مقدّمة

صُنْعُ السّلام هو أمنية لا بل وصيّة الربّ القائل: «طوبى للسّاعين إلى السّلام، فإنّهم أبناء الله يدعون» (مت ٥: ٩)، هو الذي، قبل أن يغادر أرضنا، استودعنا هذه الهديّة الرائعة: «سلامي أعطيكم» (يو ١٤: ٢٧). لكن ما نشهده في عالم اليوم من مآسٍ وحروب وويلات تسحق الناس وتقهرهم، خاصّة في منطقتنا الشرق أوسطيّة، يجعلنا ندرك كم أن البَون شاسع بين ما جاءَنا به الربّ يسوع من خلاص وسلام، وبين ما يسود حاضرًا من إهلاك وعمليّات إبادة وقلق هائل. بالطبع، يحزّ في قلب ذوي الإرادة الحسنة ما يعصف بالبشريّة في مستهلّ الألفيّة الثالثة من نزاعات حربيّة، وكأنّ ما حفل به القرن العشرون من حروب عالميّة لم يكفِ ليعلّمنا أنّ لا حلّ للصراعات والخلافات بين الناس وبين الدول إلاّ بالتزامٍ مسؤول وجدّيّ بعدم اللجوء إلى العنف، لا بل بالهروب منه، من جهة، وباعتماد وسائل خُلقيّة وسلاميّة وإنسانيّة، من جهة ثانية.

١ – كلمة «سلام» في الكتاب المقدّس

يحقّق الإنسانُ ذاتَه عبرَ عَمَلِ «الخير»، كما يعنيه الله وكما أبداه من خلال العهد الذي بتّه معنا، ويجد بالتالي تمامه الحقيقيّ، الذي هو، حسب المصطلح البيبليّ، «سلامُه» (שָׁלוֹם، «شَلُمْ»، من الجذر שָׁלֵם، «شلم» الذي يعني أن يكون المرء «تامًّا"). في الواقع، كانت كلمة «شَلُمْ»، المستعملة ٢٢٠ مرّةً في الكتاب المقدّس، تعني بالنسبة إلى العبرانيّين، في ما تعني، وقبل كلّ شيء، انعدامَ الحرب، الأمر الذي يؤمّن حياةً اجتماعيّة لا اضطرابات فيها ولا عنف، وملائمة للعيش برخاء وباسترخاء. لقد فهم أدباءُ الكتاب المقدّس الملهمون كلمةَ «سلام» (שָׁלוֹם، «شَلُمْ»)، على أنّها تمام «الخير» (טוב، «طُبْ») المعادِل للسلام، كما نقرأ في أشعيا: «أنا الربّ، وليس آخَر: أنا مبدع النور، وخالق الظلمة، ومجري السّلام، وخالق الشرّ» (أش ٤٥: ٥ و٨). حركة هذه الآية هي على مستوى الخَلْقِ والخلاص العامّ، وعلى هذا المستوى الربّ هو معطي الخير والسلام على حدّ سواء. في الحقيقة، بين عطايا الربّ، لا شيء أعظم من عطيّة «السلام»، الذي يتضمّن سائرَ العطايا الأخرى، عطايا الزمن التاريخيّ، وعطايا الزمن المسيحانيّ (أش ٩: ٥؛ ٢٦: ٣ و١٢؛ ٣٢: ١٧ي؛ ٥٢: ٧؛ ٥٤: ١٠؛ مز ٢٩: ١١؛ ٣٧: ١١؛ ٧٢: ٣؛ ٨٥: ٩، ١١؛ ١١٩: ١٦٥؛ إلخ). إنّه التعبير عمّا يتمنّاه لنا الله بالذات (قض ٦: ٢٣ي).

من المستحيل إذًا بالنسبة إلى الإنسان أن يبلغ إلى التّمتّع بعطايا السّلام من دون تقبّل عطايا «الخلاص» (ישועה، «يشُوعَهْ»)، تلك المرتبطة بالزّمن التاريخيّ، وتلك العائدة إلى الزّمن المسيحانيّ (أش ٩: ٥؛ ٢٦: ٣ و١٢؛ ٣٢). السلام هو الخير الإلهيّ، الشامل، الفرديّ والجماعيّ، القادر وحده على أن يؤمّن للإنسان الملء في كلّ أبعاده، إن على الصعيد الشخصيّ، وإن على الصعيد الاجتماعيّ.

٢ – التتلمذ على السلام

التتلّمذ هو عملٌ متواصل في حياة المسيحيّ وفي حياة كلّ من هو في خدمة الربّ. في هذا السياق يدخل التدرّب على السلام، والعمل على نبذ العنف من حياتنا كمؤمنين وكخدّام للربّ. قد يتبادر إلى الذهن سؤالٌ هو التالي: «أين نلجأ إلى العنف ضدّ الناس، في حين أنّنا رجالٌ مسالمون، نخدم الربّ ونصلّي، إلخ؟». لكن إنْ نحن تعمّقنا في مسار حياتنا اليوميّة أدركنا أنّ كلمتنا، ونظرتنا، ويدنا هي أحيانًا كثيرة عنيفة، فنحن بالتالي بحاجة ماسّة للمعالجة كي نخلع عنّا وشاح العنف، ونقتلعه من قلوبنا، ونغرس مكانه السلام.

إذا كان السلام يقودنا إلى أن نصبح أبناء لله، فإنّ العنف يفقدنا هذه البنوّة. لا يليق أبداً بالمؤمن بالله أو برجل الله أن يكون عنيفًا؛ فالعنف هو نتيجة النيّة السيّئة، والإرادة الشرّيرة، أمّا صاحب النوايا الشريفة، والإرادة الحسنة، والقويّ والحازم في مواقفه فليس سوى صانع سلام. لهذا لا يمكننا أن ننسب هذه الصفة إلى يسوع؛ والقول بأنّه لجأ إلى العنف عندما قلب موائد الصيارفة هو قولٌ غير صحيح، إذ لم يَبْغِ إيذاءَهم، بل أن يعلّمهم أنّ «بيت الله ليس بيت اللصوص بل بيت الصلاة».

في بعض اللوحات نقول إنّ الطوفان، أو تهديم برج بابل، أو الويلات التي أطلقها الأنبياء ضدّ شعب الله أو ضدّ ملوك بني إسرائيل هي أعمال عنف، لكن لا يعقل أن ينوي نبيٌّ شرًّا للناس لأنّه عبد الله وخادمه ومُرسَلُه للخير. لكن يمكن القول إنّ الله، من خلال التأديب، يريد المحافظة على استمراريّة الحياة، لهذا كانت عمليّة إبادة كلّ من لم يُرِد الحياة. المقصود إذًا هو دائمًا الردّ إلى الحياة وإلى مسار الحياة.

٣ – التحالفُ مع الشرّ عداوةٌ مع السّلام

ممّا تقدّم يبدو جليًّا كيف أنّ الخيار بين الخير وبين الشرّ، في الكتاب المقدّس، هو خيارٌ يلزم الإنسان بكلّيّته. لا خطأَ أكثر جسامة من الخطأ في الخيار الذي ينبغي

اعتماده، وفي الوجهة التي يجب اتباعها؛ فهذا الخطأ هنا يعادل رفضًا للخير الحقيقيّ، وبالتالي لله بالذات، مصدرِ كلّ خير. يكمن جوهر الخطيئة في هذا الرفض. في الواقع، «الخاطىء»، عن قصد أو عن غير قصد، ما هو إلاّ إنسانٌ «ضالٌّ» (مز ١: ٦)، يشبه الهائم في الصحراء (رج أي ١٢: ٢٤؛ مز ١٠٧: ٤؛ ١١٩: ١١٠). إنّه إنسان «عنيف» (مز ٧: ١٧؛ ٥٥: ١٠؛ ١٤٠: ٥؛ أش ٥٣: ٩، חָמָס، «حَمَسْ»)، أو، كما تترجم السبعينيّة، «غير عادل» (ἀδικέω)، «شرّير (ἀσεβεῖ)، «عاصٍ للشريعة» (παρανομέω)، ولا يُنتج شيئًا بنّاءً، ومآلُ ما يقوم به هو «العدم». من هنا الربط بين الفشل وبين ما يعمله «الخطأة» أو «صانعو الشرّ»، أو «صانعو العدم» (أش ٣١: ٢؛ مز ٥: ٦؛ ٦: ٩؛ أي ٣١: ٣؛ إلخ)، أو «حارثو العدم» (أي ٤: ٨؛ رج أش ٢٩: ٣٠؛ ٥٩: ٦ و٧؛ ١٠: ١). كلُّ عَمَلِ «الخاطىء» هو «فراغ» (أش ١: ١٣؛ مز ٢٤: ٤؛ ٣١: ٧؛ حز ١٣: ٦؛ إلخ)، שֶׁקֶר («شِكِرْ»، مز ٣٥: ١٩؛ ٤٩: ٥؛ ١٠٩: ٢)، «كذب» (כָּזַב، »كَزَبْ»، أش ٥٧: ١١؛ ١١:٥٨؛ هو ٧: ١٣).

إذًا، مَن يبغي أن يختار بين الخير والشرّ، عليه أن يقوم بالاختيار الأصيل والصحيح، وهذا لا يمكن أن يتحقّق من دون عطايا الله، وإلاّ كان «حماقة» (נָבָל، «نَبَلْ»؛ تث ٣٢: ٦ و٢١؛ مز ٧٤: ١٨ و٢٢؛ حز ١٣: ١٢) ليس إلاّ.

المصطلح الذي يُستَعمَل أكثر من غيره للتّعبير عن العقيدة البيبليّة المتعلّقة بـ«الخاطىء» –على أنّه ذاك الذي، نظريًّا أو عمليًّا، وضع نفسه في حالة رفض للقيم الخُلُقيّة والأدبيّة المرتبطة بفكرة الخير– هو كلمة «شرّير» (רָשָׁע، «رَشَعْ»)؛ تَرِدُ الكلمة مرّات كثيرة في الكتاب المقدّس، دلالةً على وفرة الأشرار وعلى جسامة الوضع بسبب هؤلاء (رج مز ١٠: ٧–١٣؛ ١١؛ ١٢؛ ٣٦: ٢–٥؛ ٥٨: ٣٧؛ إلخ).

في النصوص البيبليّة، يبدو الخاطىء وكأنّه شخصيًّا شعارُ الشرّ؛ فهو ممتلىء عجرفة، ويتصرّف وكأنّ كلّ شيء مباحٌ له؛ هو وقحٌ مع الآخَرين، يتكلّم ويعمل وكأنّ

الله غير موجود: «يفتخر بشهوات نفسه، يجدّف، ويستهين بالربّ، يستخف بالسيّد (قائلاً في نفسه): الله لا يطالب! الله غير موجود! لا أتزعزع أبدًا! أعيش خارج كلّ شرّ!» (مز ١٠: ٢-١٠). لكنّ أمانه أو اطمئنانه هو ظاهريّ وحسب؛ في الواقع، هو محطَّم بـ«الخطيئة» التي اتّخذت لها مقامًا في قلبه، تضلّله إلى حدّ أنّه لا يعرف حقيقته: «في قلب الفاسد تتكلّم الخطيئة؛ مخافة الله ليست في قلبه؛ يفضّل الوهمَ على اكتشافِ خطيئتِه وبغضِها؛ يُصرّ على اتّباع طريق السّوء، ولا يشجب الشرّ إطلاقًا» (مز ٣٦: ٢-٥). وشاحُه، وأسلحتُه، ومواقفُه المعتادةُ هي الكبرياء، والعنف، والسخريّة، والخبث، والاعتداد بالقوّة، والصفاقة: «لذلك تطوّقوا الكبرياء، واكتسوا ثوب الجور. فيهم الإثمُ يخرج من الشّحم، وقد جاوزوا ما يتصوّره القلبُ. يسخرون، وفي خبثهم ينطقون بالعسف، ويتكلّمون بتشامخ؛ يقولون: كيف يكون اللهُ عالمًا، وهل من علمٍ للعلي؟» (مز ٧٣: ٦-١١).

ليست أوصاف الشرّير الأخرى أقلَّ ثقلاً. يَرِدُ ذكرُ الشرّيرِ مع «الصِدِّيق» (צַדִּיק، «صَدِّيقْ») حوالى الخمسين مرّة في الكتاب المقدّس (رج حز ٢١: ٨ و٩)، ويختصر في شخصه وجوهَ الشّرّ المختلفة. ليس الكلام هنا على خاطئٍ ظرفيٍّ يخالفُ وصيّةً من وصايا الله بسبب الضّعف أو الإهمال. الشرّير، بالأحرى، واستنادًا إلى خيارٍ عامٍّ لحياته الأدبيّة، هو مَن يرفض أيَّ تَدَخُّلٍ معه، إنْ من قِبَل الشّرائع البشريّة، وإنْ من قِبَل الشّرائع الدينيّة، معتبرًا إيّاها دون فائدة ودون أساس، وبالتالي هو حليفُ الشرّ، وبذات الفعل عدوّ السلام.

كان يسوع مرّةً يعلّم مشدّدًا على ضرورة الصلاة من دون ملل، فأعطى مَثَلَ قاضٍ ظالم لم «يكن يخاف الله ولا يعتبر أحدًا» (لو ١٨: ٢). لم يكن هذا القاضي بالتالي في العمق سوى قاضٍ «فاسد» وظالم، عدوٍّ للأمن الاجتماعيّ، عدوٍّ للحقّ وللمظلومين، يمارس مهمّته وكأنّه مرتبطٌ بحلفٍ مع الظلم، وبالنتيجة هو عدوٌّ للسلام

ومخرِّبٌ له، ممّا يستدعي تدخُّلاً نبويًّا للتنبيه والتحذير والتهديد، وصولاً إلى إنزال العقاب إذا لزم الأمر، على أمل البلوغ إلى سلوكٍ خيِّرٍ وسلاميّ.

٤ – ثمن السّلام مرتفع

ينسب أشعيا إلى الربّ صنع النُّور والظلمة، الخير والشرّ، أو، كما يقول النصُّ حرفيًّا، السّلام (שָׁלוֹם، «شَلُمْ») والشّرّ (רַע، «رَعْ») (أش ٤٥: ٧). في الواقع، الربّ وحده «يخلق» (בָּרָא، «بَرَأْ»)، و«يعمل» (עֹשֶׂה، «عَسَهْ»)، و«يصوّر» (יצר، «يَصَرْ») الأشياء الصّالحة والسارّة، «النور» و«السّلام»، وهنا السلام بمعنى الرخاء، من جهة، والأشياء غير المرْضية والمضنية، أو «الظلمة» و«الشرّ»، من جهة أخرى.

تعطي آلامُ عبدِ يهوه «الخلاصَ»، المعادل للسلام، و«الشفاءَ» (أش ٥٣: ٥). هو الربّ مَن شاء أن يحمل عبدُه إثمَ كلِّنا (أش ٥٣: ٦ب)، ومكافأته هي أن «يرى النور» وأن «يشبع من معرفته» (أش ٥٣: ١١ب). إضافة إلى ذلك، بدلَ مساهمتِه في «تبرير» الكثيرين (أش ٥٣: ١١ج)، ينال عبدُ يهوه الفرحَ واعترافَ «الكثيرِ» من الشّعوب (أش ٥٢: ١٥) بأنّه قائد ومعلّم (رج أش ٥٣: ١٢ب). لذلك، وعلى خلاف ما كان يُعتَقَدُ في الماضي، بأنّ السيطرة السياسيّة عنصرٌ ضروريّ لتحقيق ملكوت الله (رج أش ١: ١–٦؛ ٢ صم ٧: ١٢–١٦؛ مز ٢؛ ١١٠)، فإنّ نشرَ الإيمان، وبالتالي تحقيق الملكوت، وزرع السلام، لا تتمّ إلاّ من خلال الفهم والمعرفة، والجهاد والتضحية، حتّى ولو بالألم، من أجل حياة الكثيرين وعيشهم في أمان وسلام.

خاتمة

ممّا تقدّم بإمكاننا أن نؤكّد أنّه لن يكون لائقًا بمن يؤمن بالمسيح يسوع، رسولِ السلام، أن يلجأ إلى الوسائل العنيفة عند حصول خلاف أو تنازع على أمر ما، وإنْ فَعَلَ فتلك هي الخطيئة الجسيمة، لأنّ في ذلك نكرانًا للربّ بالذات، وتنكّرًا لرسالته

الخلاصيّة والسلاميّة؛ فمن حارب الشرّ والخطيئة والعنف، وزرع المعرفة، وبشّر بالمحبّة وعملَ في سبيلها، كان فعلاً من أبناء لله، وكان عاملاً على نشر ملكوت الله، ومن صانعي السلام.